السلم والحرب

(تابع ما قبلهُ)

قال الجنرال جرانت القائد الاميركي العظيم « نشأت جندياً وحاربت حروباً كثيرة وما من حرب كان يستحيل ان تمنع لو استخدمت الوسائل اللازمة لمنعها » وقال ارل رسل السياسي الانكليزي الشهير « اذا التفتنا الى الحروب التي نشبت في هذا القرن وبحثنا عن اسبابها لم نجد حرباً منها كان يستحيل منعها لو اعتدل الخصمان » وهذا الاعتدال هو الذي يسمى الفضلاء الان ليرمحوهُ في النفوس

والعمران نفسهُ لا يتطلب الحرب ولكنهُ يحتمل وخلقهُ هو الذي يدعو الى وقوعها . وقد تصلح الحروب هذا الخلل ولكنها تصلح من جهة وتفسد من اخرى فهي كالاوبئة التي اذا دخلت بلاداً عني اهلها بالتدابير الصحية فتفيدهم فلا يحسن ان تمدح الحروب كما لا يحسن ان تمدح الاوبئة

واذا نظرنا الى الحروب الحديثة رأيناها قد عادت على موقدي نارها بقليل من النفع وكثير من الضرر بل انها لم تنل احد المتحاربين ما بناهُ فخرج منها الغالب مغبوناً كما خرج المغلوب . فلو عملت اليابان مثلاً انها تخرج من حربها مع روسيا وعاقبتها موفر بعبء مئتي مليون جنيه ديناً وهي بلاد فقيرة ولو عملت روسيا بالعاقبة التي تعود عليها من تلك الحرب لاسرعنا الى التحكيم ولبلتنا حكمهُ مهما كان . وما يقال عن روسيا واليابان يصدق على انكلترا في حربها مع الترنسفال . فان الترنسفال طلبت ان يفصل خلافهما بالتحكيم وان يكون المحكمون ثلاثة من الانكليز واثنين من الهولنديين وهذا من اعدل ما عرضهُ او تعرضهُ بلاد على اخرى ولكن انكلترا رفضت هذا الطلب العادل وكانت نتيجة رفضها لهُ ما لا يزال صداهُ يرن في الآذان . ولو سئل البلغاريون الآن اكانوا يقدمون على محاربة الدولة العلية بالاتفاق مع حلفائهم بالامس واعدائهم اليوم لو علموا بما وصلوا اليهِ لاجابوا كلاً والف كلاً . ولكن هذه الامور وما شاكلها تغيب عن الاذهان اذا ثار ثائر الغضب في نفوس الكبراء . ولا يزال لهؤلاء الكبراء لسوء الحظ الصوت المسموع والكلمة النافذة حتى الآن فلا يرجى اصلاح الحال الاَّ اذا ادرك الجمهور ان قتل الناس اثم فظيع وان الواجب يقضي بتحكيم العقل على القلب

والحرب لا تزيل اسباب الخلاف من بين الدول المتحاربة بل هي شر علاج لازالة

الخصومات لانها تزرع بذور الكره والبغضاء وقد تنقضي القرون قبلما يزول ما زرعتهُ حرب واحدة كحرب السبعين بين فرنسا والمانيا . وقد سبقنا فبينا في ما نشرناهُ منذ شهرين ان الالزاس واللورين اللتين غنمتها المانيا من فرنسا في تلك الحرب هما مفتاح الشر في اوربا الآن والباعث على تسلح دولها . ولكن الدول قامت بحد الحسام فلا تغمدهُ اختياراً وتبسطت لها السيادة برصاص البنادق فلا تطرحها الاَّ اضطراراً

من رأى دول الارض الآن تنفق مئات الملايين من الجنيهات سنويًّا على اعداد معدات الخراب والدمار وتعزيز الاساطيل المائية والهوائية وتجييش الجيوش وابلاغها اعظم ما يمكن من القوة والمنعة — من رأى ذلك كلهُ قال انها تتأهب لحرب عامة تزهق الارواح وتذهب بالاموال وتزعزع اساس الحضارة ونقوض معالم العمران . ولكن كرت الايام ومرت السنون وهذا التأهب آخذ في الزيادة والحرب لم تقع الاَّ بين اقل الدول استعداداً فالدول لم تلجأ اذاً الى هذا الاستعداد الهائل والتأهب المخيف وتعمد الى الاستزادة منهما الاَّ اتقاء للحرب ودفعاً لغوائلها متحدية في ذلك المثل المأثور « لا يفل الحديد الاَّ الحديد »

فالاستعداد للحرب لا يقصد بهِ الحرب بالذات بل ترجيح قدم السلم وتثبيتها ولكنهُ لا يحتمل ان يظل طويلاً ساتراً سيرهُ فقد صارت نفقاتهُ عبئاً ثقيلاً على ظهور الصناع والعمال والفلاحين وهم جمهور الامم ينوءون بحمله ولا غرابة في ذلك ما دام ناظر مالية انكلترا اغنى بلدان العالم طراً يضج بالشكوى من اندفاع العالم في سبيل التسلح اندفاعاً هو اقرب الى الجنون منهُ الى التعقل قائلاً ان هذه الطريق تؤدي الى الخراب والدمار

ولو كانت دول اوربا الكبيرة خالية من نظام التجنيد بالقرعة مثل الولايات المتحدة وانكلترا ومحتاجة الى رجال يتطوعون في جيوشها كاحتياج انكلترا لرفعت صوتها منادية بالكف عن الاستزادة من التسلح ومطالبة انشاء رابطة السلام بين الدول اجمع

قال فرنكلن العالم الاميركي المشهور « ان لتنظيم الجنود وارصادها للحرب نتيجة لا بد من ان تدعو اخيراً الى ابطال الحروب لان الجندية المنظمة تقلل عدد السكان وتضعف نوع الانسان باخذها زهرة شبان الامة واقواها رجالها وانشطهم ومنعهم من الزواج واخلاف النسل » . وما يصدق على الجنود المنظمة يصدق بالاخص على الجنود الذين يحاربون ويقتلون فان الامة تتقدم وتفقد نسلهم الى الابد . فقد اثبت علم الاحياء (البيولوجيا) ان جودة النسل تتوقف على جودة الاصل ومستقبل الامم يتوقف على الذين يعيشون من ابنائها ويخلفون نسلاً وان اصلاح النوع يتوقف على اختيار الاصل الصالح لانتاج النسل الصالح

وهو الناموس الذي يجري الناس عليهِ هذه الايام في تأصيل المواشي واصلاح انواعها . فالصفات التي يمتاز بها الجندي الباسل كالقوة والحزم والشجاعة وحب الوطن هي الصفات التي تفقدها الامم بجعلها رجالها جنوداً ومنعهم من التزوج . وهذا يدحض زعم الذين يذهبون الى ان الحروب تزيد الامة نشاطاً واقداماً لان الامة لا تقوم بالذين يصلحون للتجنيد فيتجندون ويقتلون او يمتنعون عن التزوج بل بالذين لا يصلحون لهُ فيعيشون ويتناسلون

وقد قامت عظمة الرومانيين برجالهم الاشداء ولكنهم لما شعروا بما لهم من القوة واراد وا استعمال قوتهم واتحدوا وغزوا ونهبوا وخاضوا غمار الحروب وفتحوا الفتوحات اضطروا ان يستخدموا افضل رجالهم وكانت النتيجة ان الاشداء الذين عليهم المعول ذهبوا الى الحروب والغزوات فخلت منهم رومية وبقي فيها الضعفاء والسقماء والذين لا تتألف منهم الجيوش ولا يصلحون لانسال النسل الصالح فكان ذلك سبب انحطاط رومية لا البذخ والترف وفساد الآداب

استهل نبوليون الاول حكمهُ استهلالاً مجيداً بقانونهِ وبسالتهِ ومهارتهِ في فنون الحرب ولكن ما لبث ان انقلبت شهامتهُ الى عدوان فتتابعت غاراتهُ على الاعداء فالمسالمين فالاصدقاء وتوالت تعبئة الجيوش في فرنسا حتى انهُ لما عزم على غزو المانيا وحشد شوكتها واراد ان يعبئ جيشاً كالجيش الذي غزا بهِ روسيا لم يجد الاَّ مرداً غير مدربين على حمل السلاح لان الرجال الاقوياء قتلوا في معاركهِ السابقة فكانت النتيجة ان المزايا التي كان يمتاز بها الجندي الفرنسوي فقدتها الامة بفقد رجالها . ولما ترك نبوليون فرنسا تركها جريحة مكلومة تندب ابناءها الاشداء الذين انتهم الحروب

ونهضت منذ ثلاثين عاماً دولة في الشرق الاقصى لخبوث العالم بتقدمها وترقيها السريعين وادهشت الناس بتفوقها في ميادين القتال وفوزها على الصين وروسيا . استعرضوا ذلك منها لانهُ مرَّ عليها مئتا سنة وهي جائعة الى السكينة وراتعة في بحبوحة الامن والسلام وفاتهم ان امتها وسلامتها اللذان حفظا رجالها وانميا نسلها واذا غا الاقوياء لم ينمُ معهم الضعفاء لان ناموس بقاء الاصلح يترك القوي ويقوض الضعيف ولكن هب ان الآية عكست واستمرت اليابان تحارب مئتي سنة افيبقى فيها رجال حرب كما فيها الآن فاذا بقي فيكون ذلك من خوارق الطبيعة وعجائب الدهر

والتعليم خير كفيل لتأييد السلم بعد ما ظهر ان المتعلمين يأتمرون الانتظام في سلك الجيوش . وقد انتبهت الحكومة الانكليزية الى ذلك حديثاً — لانها وجدت ان عدد الضباط

اللازمين للجنود المتطوعين قد قلَّ اكثر من ٢٥ في المئة وان المتطوعين نقصوا نقصاً كبيراً وكذلك ضباط الجيش العامل والمتطوعين في جيش الهند — وعدتهُ من اصعب المشاكل التي يطلب من نظارة الحربية حلها. ويظن البعض وهم من اكبر الثقات في الامور الحربية وفي مقدمتهم اللورد روبرتس انهُ لا علاج لذلك الاَّ بادخال نظام التجنيد الاجباري . ووقعت حكومة الولايات المتحدة في مثل هذا المشكل فضاقت ذرعاً من تدبير العدد الكافي من البحارة لسفنها الحربية فزادت الرواتب وعمدت الى كل وسيلة لاغراء رعاياها بالانتظام في سلك البحرية ولما اعيتها الحيل عرضت ذلك على المتجنسين بالجنسية الاميركية ولا نعلم هل انتظم فيها بعض المهاجرين السوريين او لا . ولو كانت الولايات المتحدة مضطرة الى حفظ جيش كبير وظل التجنيد فيها اختيارياً كما هو الآن لذاقت حكومتها الامرين في تدبير العدد الكافي من الرجال لهُ

حللت الشرائع الدينية والادبية للانسان ان يدافع عن نفسهِ اذا اعتدى عليهِ معتدٍ واراد بهِ سوءاً . وما يجوز للفرد يجوز للجماعة بالمثل . فالدفاع عن الوطن جائز بل واجب اذا هاجمهُ عدو ولكن اذا كان الدفاع عن الوطن واجباً فالاعتداء او الهجوم على اوطان الآخرين حرام . والجنود على نوعين جنود منظمة وهي التي يراد بها الهجوم لا الدفاع لانهُ اذا لم يكن هجوم فلا دفاع وجنود متطوعة وهي التي لا تحمل السلاح الاَّ للدفاع . وما الجندي المنتظم في الجندية الاَّ عامل مستأجر لايقاع الاذى والضرر بغيرهِ او قتلهِ حلالاً كان او حراماً لان من يقيد بالخدمة العسكرية يكون قد سلم قيادهُ لسواهُ وتنازل عن حقهِ في الحكم لنفسهِ والجري على ما يرشدهُ اليهِ وجدانهُ فصار رهن اشارة رؤسائهِ وهذا يخالف سنة الارتقاء التي توجب على المجتمع ان يتمتع كل فرد من افرادهِ ببركات الحرية الشخصية وكل ما يخالف نظام الكون مصيرهُ للزوال

يدرس الانسان فنون القتال ليعلم كيف يسدد بندقيتهُ حتى يقتل برصاصها العدد الاكثر من الناس ويحكم مدافعهُ ليدمر بشظاياهِ المقدار الاكبر من الاملاك ويتلف بها القسم الاعظم من المال ويتمرن على خطط الحرب ويلم باصولها حتى يبرع في استنباط الحيل لخدع عدوهِ والايقاع بهِ — وفي المثل الحرب خدعة — وكلما مهر في تسديد المرمى واصابة الغرض وبرع في اساليب القتل والفتك وبرز في حلبة الخداع والرياء علت مرتبتهُ وارتفعت منزلتهُ وتحلى صدرهُ بالياشين واوسمة الفخار وطار صيتهُ في الآفاق ودون اسمهُ في بطون التواريخ. فلا غرو اذا رأينا ضباط الجيوش يجبذون الحرب ويحاولون رفع شأنها في عيون الناس لان

ما تطمح انظارهم اليهِ من التقدم والارتقاء وزيادة الراتب ونيل الشهرة وكسب الفخار لا يتم لهم الاَّ في حومة الوغى فاذا لم يختلقوا اسبابًا للحرب عظموا ما يرونهُ من اسبابها مدفوعين الى ذلك بواجب المصلحة وحب الفخر والمنفعة

وصانعو الاسلحة والمعدات الحربية واصحاب دور الصنعة لا تروج بضاعتهم الاَّ في زمن الحرب او في زمن الاستعداد لها . ومتولو توريد الارزاق والمير للجيوش المحاربة لا تزيد ارباحهم وتتوفر لهم المكاسب الكبيرة الاَّ في زمن الحرب ايضًا بطرق عديدة محللة او محرمة . والماليون الذين يقرضون الدول المال ولهم الكلمة النافذة في مجالس الوزراء والنواب لا يصعب عليهم ان يثيروا حربًا لحفظ ديون قديمة او اصدار قروض جديدة يكتسبون بها الملايين . واصحاب الصحف الذين بلغوا في اوربا واميركا مبلغًا عظيمًا من القوة والنفوذ يحسدهم عليهِ الوزراء والمتقاضون على ازمة الاحكام تجيج جرائدهم في زمن الحرب ويتضاعف ما تطبعهُ حينئذٍ فتتضاعف مكاسب اصحابها — كل هؤلاء وغيرهم ممن لهُ علاقة او اتصال بهم يؤيدون الحرب ويختلقون الاسباب لاثارتها ويتذرعون بكل الوسائل لزيادة التوتر بين الامم وتنفير بعضها من بعض حتى لتوتر العلاقات بينها فتعمد اما الى التأهب والاستعداد او اضرام نار القتال قضاء لاوطارهم وترويجًا لبضاعتهم وزيادة مكاسبهم

فحب الكسب من اهم الاسباب التي تدعو الى الحروب وما زال قواد الجيوش والماليون وصانعو الاسلحة واصحاب دور الصنعة ومتعهدو الارزاق والمير للجيوش وشركات الصحف يؤثرون مصلحتهم الخاصة على المصلحة العامة ويعبدون اله الطمع والجشع فزوال الحروب وانتفاء اسبابها بعيدان . ولكن احد الفضلاء اشار ببعض الوسائل الفعالة التي تقلل شأن من ذكرنا في اذكاء الحروب فقال ان ازدياد نطاق التعليم الصحيح واستنارة اذهان الجمهور بنور العلم والعرفان هما من خير الوسائل لزوال الحروب بدليل ما نراهُ الآن من كره المتعلمين للانتظام في سلك الجندية . وهناك امور اخرى تساعد على ادراك هذه الامنية الاَّ انها تلزم تآزر الحكومات وجمهور الناس وتعاونهما لتحقيقها واهمها التالي :

اولاً — امتناع الحكومات من اعطاء الرتب والنياشين للممتازين بقتل غيرهم من قوادها وضباطها وجنودها واجلال الناس لهم واحترامهم

ثانيًا — تدقيقها في ابتياع الاسلحة والذخائر والمير لجنودها حتى لا يربح صانعوها وموردوها الاَّ الربح القانوني او ما هو اقل منهُ

ثالثاً — تقليل المكاسب الاخرى التي يكسبها فريق من الناس دون غيرهم من الحروب مادية كانت تلك المكاسب او ادبية

رابعاً — حذف كل تنويه بالقواد والجنود من كتب المدارس وكتب المطالعة التي يميل الاحداث الى مطالعتها وابدالهُ بوصف ويلات الحروب وفظائعها حتى يرسخ في اذهان الناشئة الجديدة ان الحرب من شر البلايا التي لتناب النوع الانساني وانها لا تفضل الاوبئة التي ترتعد لها الفرائص في شيء

خامساً — انشاء صحف كبيرة مستقلة في جميع البلدان تديرها اقلام اكتب كتاب العصر يكون غرضها الاول كشف مخبآت الذين يكتسبون من الحروب وتشهيرهم سواء كانوا من القواد او الماليين او من رجال السياسة او من اصحاب المصانع او من المساهمين فيها وتهيئة الافكار لطلب التحكيم في المسائل الخلافية وايثار صدور الناس على رجال السياسة الذين يرفضون التحكيم . ولا بد من رصد الاموال الطائلة لانشاء هذه الصحف وترويجها لانهُ لا بد لها من الخسارة في اول الامر

ثم انهُ لا بد من اذاعة ما قالهُ اكبر رجال الحرب واعظم القواد في ذم الحرب وفظائعها وما تجنيهِ على البشرية من الخراب والدمار لان الذين اطلعوا على شتات هذه الاقوال قليلون جدًّا . وليس هناك ما هو ادل على فضل حرفة او ضررها وحسنها او قبحها او ابلغ في النفس وقعاً من شهادة الذين وقفوا حياتهم على خدمتها . فقد قال فيها نبوليون الاول اكبر القواد واعظمهم « الحرب صناعة المتوحشين » وقال دوق ولنتون « الحرب اكره شيء فاذا رأيت يوماً واحداً من ايامها فانك تطلب من الله ان لا يريك يوماً آخر » ودعي الجنرال جرانت ليشاهد عرض الجنود الانكليزية فقال « اريد ان لا تقع عيني على الجنود مرة اخرى » وقال وشنطن « ان جل اماني ان ارى الحروب منتفية من العالم فهي شر ما بلي به » وقال لورد كلارندون « لا تستطيع ان تصور صورة لجهنم اوضح من صورة بلاد نشبت فيها حرب »

واقوال العلماء والمؤرخين والشعراء والكتاب في ذم الحرب وتقبيحها تملأ مجلدات كثيرة فقد قال فيها الفيلسوف باكون ما معناهُ « لا سبيل لعد الحرب جائزة مالم تمحق الديانات في هاون وتركب منها ديانة جديدة »

وابلغ من ذلك كلهِ ما قالهُ جون هاي وهو من اعظم وزراء اميركا واحكمهم « الحرب اسخف جهالات الناس واقبحها »